

التطلع نحو تحقيق مستقبل مشرق
الزمان والمكان: 17/ شوال/ 1427هـ – طهران
المناسبة: زيارة الإمام الخامنئي لمحافظة سمنان
الحضور: مجموعة من النخب الطلابية

بسم الله الرحمن الرحيم
إنّ الذي أشاهده في هذا الحشد المغمور بالحماسة والطاقة والمحبة، يعتبر بالنسبة لي
بمثابة إشارة كبرى.
وهذه هي عادة الحشود الطلابية في أغلب المناطق التي نُوقِّق فيها للقاء هؤلاء
الأعضاء.
إنكم تمثلون مجموعة من تلك الحشود الطلابية العظيمة في البلاد، وإنني أرجو ممن
تجمّعوا في هذه الصالة من طلاب المحافظة أن يبلغوا سلامي وتحياتي إلى بقية الطلاب
والأساتذة الأعضاء.
إنّ الذي نشاهده في هذا الاجتماع يدلّ بشكل حقيقي على الحركة والحياة والشوق
والأمل والاستعداد للعمل؛ من أجل طيّ المسافات الصعبة، والوصول إلى الذرى.
وصدق من قال:
كان وجودي ينبض كالقلب مثل قطرة موشكة على السقوط¹
إنّ ثمة أناساً يفيضون نبضاً وحيوية، وكأنّ جميع أعضائهم وجوارحهم قلب من
القلوب، وهؤلاء بمقدورهم بلوغ القمة.
إنّ بلوغ القمة تسبقه مرحلة من الأمل.
فعندما تنظرون من نافذة المنزل إلى مشهد من المناظر الجبلية – كما في طهران
مثلاً – فإنكم ترون بعض متسلّقي الجبال يسيرون في المرتفعات العالية، وحينئذ
يرادكم الأمل في الوصول إلى هناك.
إنّ هذه مرحلة، ولكنها ليست كافية، فالمرحلة التالية هي النهوض من الفراش،
والإنطلاق إلى خارج المنزل بلباس وحذاء مناسبين، والتوجّه إلى الجبل.

¹ قطرهى ناچكیده را مانم.

¹ تپش دل بود سرا پایم

وعندما يصل المرء إلى المنطقة السفلى من الجبل فإن البعض يشعر بالإرهاق؛ نظراً لما يُعانيه من المرتفعات، وما يتحمّله من متاعب وعناء الطريق، فيصيبه الضجر، ويظنّ أنّ بلوغ القمة كقفزة الحمامة، فما عليه إلا أن يقفز محلّقاً؛ ليجد نفسه هناك دون التفكير في تلك المسافة الممتدة.

فهؤلاء يداهمم اليأس بسرعة.

والبعض الآخر يحسّ بالتعب بمجرد قطع بعض المنعطفات الصعبة، والبعض قد لا يشعر بالتعب ولكنه ينفذ صبره، ويتعجّل الوصول؛ ظناً منه أنّ المسافة التي قطعها في نصف ساعة أو في ساعة كفيّلة بإيصاله إلى الذرى العالية. فهذه هي مواطن الضعف في تلك المسيرة.

إنّ الذي يثق ببلوغ القمة هو ذلك المتذرّع بالصبر والرجاء، مستثمراً كل ما لديه من قوة وطاقة، وقاطعاً طريقه؛ يحدوه الأمل بالوصول، ولا يخشى من طول الزمان وامتداد الطريق وتعاقب المنعطفات، وتخلّف بعض رفاقه في منتصف الطريق.

إنّ البعض يقصدون ذوي النقى وأهل المعنى سائلين إيّاهم تذكرة تبلغ بهم ساحة النور والهداية! إنهم يتخيّلون أنّ الأمر يشبه تناول قرص، ومن ثم يجد نفسه فجأة في حظيرة القرب، كلا.

إنّ الإنسان إذا أراد أن يكون نورانياً، وأن يفتح قلبه على عوالم الغيب، وإذا رغب في الاستماع إلى صوت الملائكة، وإذا تاق إلى دخول ساحة الجلال الإلهي، وإذا راوده الأمل في أن تتمتع مشامّه المعنوية باستنشاق عطر التوحيد، فإن عليه أن يجدّ ويسعى ويستقيم على الطريقة.

إنّ القمة ماثلة هناك، ولكن هناك من يتوقّف عند منتصف الطريق، وهناك من يخامر الندم، وهناك من يداهمه الضجر، وهناك من يقفل عائداً إلى حيث أتى، وهناك من يقول للآخرين: بأنه لا جدوى من ذلك فأين تذهبون، وهناك من يشكّ أساساً في وجود القمة! إنّ مثل هذه القضايا موجودة في حركة السير والسلوك المعنوي، وهي موجودة أيضاً في حركة السلوك المادي.

لقد قلتُ لطلاب الجامعات في إحدى زياراتي لهم: إنّ عليكم أن تخططوا لخمسين عاماً قادمة؛ فهذا ما نرجوه.

وأعني في هذا المجال العلمي.

فليكن هدفنا أن تصبح بلادكم بعد خمسين عاماً على رأس الدول المتقدمة علمياً، بحيث لو أراد أحد أن يتعرّف على الجديد في حقل العلوم فعليه أن يتعلّم لغتكم؛ وذلك كما أشارت هذه

الأخت العزيزة قائلة: بأننا مضطرون لتعلّم لغة عالمية، وحقاً نقول. لقد جعل الانجليز من لغتهم لغة علمية وعالمية بكل دهاء، فمن أراد أن يتعلّم شيئاً أو يطالع موضوعاً فعليه أن يتعلّم لغتهم.

إنّ عليكم أن تجعلوا الحاجة ماسّة للغة الفارسية خلال الخمسين سنة القادمة. فهذا هو الطموح، وهذه هي القمة كمثل قمة دماوند أو قمة توجال، التي لو نظرنا إليه نشعر بالإثارة والرغبة في صعودها. ولكن من يستطيع؟ إنّ على من يريد ذلك أن يجهّز نفسه بملابس وأدوات التسلّق، فضلاً عن الهمة العالية والانطلاق على الطريق.

إنني ألمح هذه القابلية في شباب بلادنا، وليست هذه مبالغة أو شعاراً، فإن أحد لا ينتظر منا أن نتحدث بهذا الكلام، ولكنها الحقيقة.

إنّ الشباب الإيراني يتميّز بإمكانيات ممتازة على كافة المستويات، فلو غابت عنا هذه الحقيقة نحن المسؤولين نكون قد أجرمنا، وكذلك هم الشباب.

إنّ للخطأ عواقبه الوخيمة كالتخلف وعدم اللحاق بركب الحضارة. ولكننا إذا فتحنا أعيننا واكتشفنا الطريق، وتحلّينا بالإرادة، وحددنا الهدف؛ فإننا سنحقق آمالنا بلا أدنى شك.

إنّ الذين يتربّعون الآن على القمم العلمية لم يصبحوا هكذا فجأة، حتى إنّ أمريكا التي تقف اليوم في صدارة بلدان العالم على المستوى العلمي كانت تمدّ يدها لإنجلترا وفرنسا وإيطاليا قبل نحو قرن من الزمان طلباً للأدوات والأجهزة الحربية العادية.

فلتقرأوا التاريخ! ففي الحروب الأهلية الأمريكية – المعروفة بحروب الانفصال – كانت رحى المعارك دائرة بين الشمال والجنوب.

لقد كان الجنوبيون يناضلون من أجل الانفصال ولكنّ الشماليين كانوا يحولون بينهم وبين ذلك، فاستمرت الحرب على مدى أربعة أعوام، وكان ذلك منذ نحو مئة وخمسين عاماً، أي حوالي عام 1860م، وكان كل واحد من الأطراف المتنازعة يرى قمة نجاحه في الحصول – مثلاً – على سفينة حربية مزوّدة بالمدفعية من إنجلترا والإبحار بها إلى مواقعها عبر مياه المحيط الأطلسي.

لقد كانوا يفتقرون إلى الإمكانيات آنذاك، وأما الآن فهم على قمة العلوم؛ لأنهم بذلوا جهودهم الحثيثة في سبيل ذلك.

إنّ العمل الدؤوب لا شأن له بالدين والإيمان والكفر والإسلام، وهذا ما يقوله القرآن الكريم. لقد قرأت هذه الآية ورددتها لمرات عديدة ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُوَآءًا وَهَؤُلَاءَ﴾² وهي سنّة إلهية.

إنّ الذي يكافح من أجل هدف ما، فإنه يبلغ ذلك الهدف طبقاً لقانون السنن الإلهية. إنّ مشكلة أن يكون المرء عارياً عن البعد المعنوي هي قضية أخرى، إنها مشكلة البعد الواحد، والإفتقار إلى ثروة ضرورية أخرى، وتركيز الإرادة على جزء دون آخر؛ وهو ما يعانون الآن من عواقبه وأضراره.

إنّ المجتمع الأمريكي اليوم غارق في هذا المستنقع من قمة رأسه حتى أخصص قدميه، وهو يفحص بقدميه للخروج من الكارثة، ولكنها تضيق خنادقها عليه يوماً بعد آخر، ولسوف تقضي عليه.

إنّ هذه الأحداث التاريخية لا تقع خلال عام واحد أو خمسة أو عشرة أعوام، وإنما خلال قرن أو قرن ونصف، ولقد شارفوا على النهاية، ويواجهون مشاكل حادّة، وهو ما لا شأن لنا به الآن. فعلينا إذاً بالجد والعمل، وإنني أجدكم أهلاً لذلك.

إنّ ما تفضّل به الأخوة الأعضاء – رئيس الجامعة المحترم وبعض الأساتذة والطلبة – هي مطالب علمية ومهنية، وكلامهم صحيح تماماً.

إنّ هذه المطالب هي ما يهمني شخصياً، وهي ما أرددها دائماً على مسامع المسؤولين، ولقد أكرّرتموها ها هنا أمام الحضور من الوزراء المحترمين.

إنّ كل ما يتعلّق بمجالات العلوم والأبحاث والعلوم الأساسية يعتبر من القضايا التي طالما أكّدت عليها مراراً وتكراراً.

وإنّ كافة البلدان المتقدمة كانت انطلقتها من العلوم الأساسية.

إنّ مسألة إدارة الأبحاث هي من المسائل البالغة الأهمية، التي دوّنت ملاحظاتي حولها في أحد

لقاءاتي بطلاب الجامعة في شهر رمضان، وإنني أقول مؤكّداً: إنه لا بدّ من وجود إدارة للأبحاث.

² سورة الإسراء، الآية: 20.

إننا نقول دائماً: بأن ميزانية الأبحاث والتحقيقات يجب أن ترتفع من سبعة وأربعين من المائة بالمائة إلى ثلاثة بالمائة، حيث يدور النقاش حول البعد المادي والكمي، وهو شيء ضروري، ولكن ثمة أيضاً البعد الكيفي، فلا يجب أن تكون الدراسات والأبحاث تكرارية وغير لازمة، بل لا بد من أن تكون أساسية وعملية وعلمية — أي ثلاثة أنواع من الأبحاث — ولكل منها نسبة وأهمية خاصة في مجمل ما لدينا من تحقيقات، وإنّ عدم العناية والاهتمام بهذه النسبة يعتبر من مشاكلنا في هذا المجال.

إنه لا بد من وجود مركز لإدارة الأبحاث في بلادنا، وهو ما سوف يتحقق إن شاء الله بفضل عزم وإصرار هؤلاء الأخوة الأعزاء وهذه الحكومة الفاعلة المتسلّحة بالهمة والإرادة.

وأما بالنسبة لمشاكل الطلاب والأساتذة، وكذلك حركة المطالبة بالعدالة — وما إلى ذلك من مواضيع — فإننا متجاوبون معها.

ولسوف أبذل كل ما بوسعي في إطار مسؤوليتي، وسأقدم التوصيات إذا اقتضت الضرورة، وأرجو أن يواصل الأعزاء أداء مهامهم إن شاء الله.

إنني أريد أن أتحدث معكم حول الآية القرآنية التي نقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾³.

إنّ التغيير يأتي على أيديكم، وأنتم تملكون مفتاح التحوّلات الاجتماعية والتطورات الكبرى، وهو ما نفهمه من مضمون الآية.

وهناك آية أخرى تأتي في دائرة أضيق، وهي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾⁴.

إنّ هذه الآية تدور حول التخلف، فالله سبحانه وتعالى لا يبنتلي أمة بالتخلف إلا إذا كانت هي السبب في ذلك. وإنّ التغيير الموجب للتخلف يعود أيضاً إلى ما اكتسبت أيدي الأمم والشعوب.

وهناك آيات أخرى كثيرة تحمل نفس المضمون.

فما هي خلاصة كل ذلك؟ الخلاصة هي: أنّ الفرد يملك بيده مفتاح كافة التحوّلات الاجتماعية، فعلى أيديكم — أنتم — يأتي التحوّل والتغيير، وإنّ المسار تحدده إرادة الإنسان.

³ سورة الرعد، الآية: 11.

⁴ سورة الأنفال، الآية: 53.

قد يقول قائل: ما هي الإرادة؟ وإرادة مَنْ؟ وما هي الإرادة الفاعلة لي أولك كفرد من أفراد المجتمع؟

إنّ هذا من الأبحاث العميقة والواسعة، ولكنني أريد أن أقول باختصار: إنّ إرادة كل إنسان تأثرها، ليس فقط على المستوى الفردي، بل على الصعيد الاجتماعي أيضاً. إنّنا لو حكمنا أغراضنا وشهواتنا وأهواءنا النفسية في أعمالنا وسلوكياتنا متجاهلين العقل والمحاسبة السليمة، فإنّ هذا سيؤثر في إيجاد سلسلة من التحوّلات السلبية في المجتمع.

والإيكم مثلاً بسيطاً: إنكم تذهبون إلى السوق لشراء سلعة ما، ولنفترض أنّها إحدى الأدوات المنزلية، فهناك نوع أجنبي، وآخر محليّ، فتختارون النوع الأجنبي، إما تأثراً بالدعاية، وإما للتفاخر، وإما بسبب الترسّبات الثقافية السلبية حول المنتجات الوطنية، وإما بسبب أفضلية السلعة الأجنبية، وإن لم يكن ذلك عاملاً مؤثراً. فما هي النتيجة؟ النتيجة هي: أنكم جعلتم عاملاً إيرانياً عاطلاً عن العمل، وشجّعتم عاملاً أجنبياً على العمل.

حسناً، أفليست البطالة من المشاكل الرئيسية في مجتمعنا اليوم؟! وإذا ما تصرف كل منّا بهذه الطريقة فما الذي سيحدث؟ إفلاس المصانع الوطنية، وإخراج المواطنين – العمال – من العمل، وبالتالي تعرّض أصحاب رؤوس الأموال المحليين للفشل. وطبعاً فإنّ البطالة تأتي بالإعتياد والفساد والخلافات العائلية، ومن ثمّ الكثير من الأحداث السياسية والاجتماعية المختلفة.

وكل هذا يبدأ من شيء بسيط يتمثّل في الإرادة الفردية لكل واحد منّا. إذا فالإرادة الشخصية للأفراد يمكن أن تلعب دوراً حتى في التحوّلات الاجتماعية، ولدينا الكثير

من مثل هذه القضايا، حيث يتوق أحدهم لتناول سيجارة من رقيقه، فيصبح بعدها مدخناً، وقد تجذبه المخدرات وسواها من الأهواء العابرة التي تقود في النهاية إلى تيار عظيم لا نهاية له من التحوّلات الاجتماعية المختلفة. والعكس صحيح.

إنني أذهب أحياناً في الصباح إلى مرتفعات طهران، فعندما نتحرك يكون الجو مازال مظلماً، وتكون الشوارع فارغة بعد صلاة الصبح، ومع ذلك فإننا نتوقّف عند كل إشارة حمراء احتراماً لقانون المرور، رغم أنّ الشوارع خالية ولا توجد سيارات، ثم نعاود الحركة مع اشتعال الضوء الأخضر.

ولقد شاهدت أحياناً أنّ سيارة تأتي من الجهة المقابلة، وفي نيّة سائقها تجاوز الإشارة الحمراء، فيتقدّم قليلاً، ولكنه سرعان ما يتوقّف ويعود أحياناً إلى الخلف، عندما يرى بعض السيارات المتوقّفة هنا وهناك عند الإشارات الحمراء، أي أنّ الانضباط الاجتماعي للفرد يؤثر في شعور ضرورة الانضباط الاجتماعي لأفراد المجتمع الآخرين.

إنّ لسلوكنا الفردي تأثيراً حتى في بناء الثقافة وسوى ذلك من الأمور الأخرى. وعلى أية حال فإن الإرادة الإنسانية محور وملاك.

والآن ما هو التحوّل؟ ولماذا؟ وهل لابدّ من حدوث تغيير؟ نعم.

إن التحوّل في المجتمعات الإنسانية، ومن أجل البشر سنّة إلهية لا تتبدّل. وليس بمقدور أي أحد الوقوف بوجه التحوّل البشري.

إنّ التحوّلات البشرية تترى الواحد تلو الآخر عاجلاً أم آجلاً، وهذا هو سر بقاء وتكامل الإنسان.

لقد خلق الله الإنسان على هذه الوتيرة، حيث لا جمود في طبيعته وفطرته؛ ولعل هذا هو الفرق بين الإنسان وغيره من الموجودات.

إنّ ثمة نوعاً من التغيير أيضاً في الموجودات الأخرى وهو ما يسمّى بتحوّل وتبدّل الأنواع، ولكن لا شأن الآن لنا بهذه القضايا، فلا اختصاص لنا فيها، ولا قدرة على الحكم عليها ولا

دخل لها في حديثنا، ولكن هنا تحوّلًا أكيداً في الإنسان.

فلا ينبغي أن نكون ضد التحوّل ولا يجب إنكاره، ولا مناص من الاتجاه نحو التحوّل بالأسلوب الصحيح، كما سيأتي التوضيح.

فما هو عكس التحوّل؟ إنه الركود، فهو ما يقابل التحوّل.

إنّ البعض يفهم ذلك بشكل خاطئ ويفسره بشكل غير سليم. فالبعض يخلطون بين الركود والثبات الاجتماعي، مع أنّ الركود سيئ والثبات الاجتماعي حسن.

والبعض يعتقد أنّ الركود هو الثبات الاجتماعي، والبعض الآخر يخلط بين التحوّل والغوغائية والفوضى والتسيّب؛ وقد تسببت هذه الأخطاء في أن يعارض عدد من القائلين بالثبات الاجتماعي كل أنواع التحوّل والتغيير؛ بحجة أنّ هذا التحوّل يضرّ بالثبات.

ومن ناحية أخرى فإن من يتصورون بأن كل تحول يؤدي إلى الهدم والتمزق والفوضى والتشكيك في كل الأصالات يقضون على الثبات الاجتماعي ويعرضونه للخطر؛ من أجل إيجاد التغيير.

فهذان خطآن من كلا الجانبين.

إنّ التحول شيء، والغوغائية شيء، والفوضى شيء آخر. وكذلك فإن الثبات الاجتماعي شيء، والركود الاجتماعي شيء، والجمود الاجتماعي شيء آخر، فلا يجب الخلط بين هذه الأمور.

إنّ الجيد والصحيح هو المجتمع الثابت والمستقر، والبعيد عن الركود والمتجه نحو التحول، إنه المجتمع الذي يُظهر حتى مرونة سريعة إزاء التحوّلات الصحيحة. فكيف يمكن اكتساب هذه الميزة؟ بالحفاظ على الجذور والأصالة والابتعاد عن هدم البنى والعناية بالهوية الوطنية واحترامها بشدة.

إنّ الهوية الجمعية لأي شعب من الشعوب تعتبر من الأمور التي لا ينبغي المساس بها في حركة التحوّلات.

وإضافة إلى الهوية الوطنية فلا بدّ من إيلاء الأهمية القصوى والاحترام الشديد للأصالة والحيوية،

والتمتع بحرية الحركة وروح المراقبة فيما بيننا.

ومن لوازم هذه الحيوية والأصالة التحلّي بروح النقد، وتقبّل الانتقاد من الآخرين، فمن الخطأ تجاهل أي منهما.

إنّ البعض يجيدون الانتقاد، ويتميّزون بالنقد البناء والدقيق والمتأمل؛ بهدف إصلاح العيوب الممكنة، ولا غضاضة في ذلك، إلا أنّ نفس هؤلاء الأشخاص لا يقبلون النقد من الآخرين! فلا يروق لهم أن يصفهم أحد بالثرثرة والتركيز فقط على العيوب، وعدم الوقوف إلاّ على الجروح كشأن الذباب، وغضّ الطرف عن الإيجابيات!

إنّ المعيار والملاك هو مطابقة الإيجابيات مع السلبيات.

إنّ لدينا جميعاً نقاط ضعف، وإشكالات، وصفات سيّئة، ولكننا نمتلك أيضاً نقاط قوة، وصفات جيدة، وسجايا حميدة.

المهم هو نتيجة المقارنة بين هذا وذاك، فهذا هو المعيار.

فإذا ما فاقت سلبياتنا إيجابياتنا تكون النتيجة سيّئة، والعكس صحيح.

إذاً فالنقد صحيح، والقبول بالنقد صحيح أيضاً.

إنّ هذه هي لوازم التحوّل والحالة الممتازة للمجتمع, فضلاً عن الأمل والعمل الجاد والبرمجة والمنهج الصحيح والقدوة الصالحة.

ولكن.. ماذا نريد أن نفعل؟ وما معنى هذا التغيير الذي نسعى لإيجاده؟ وما الذي سيحلّ محلّه؟

إنّ هذه قضايا مهمة، ولا تتحقق إلاّ بالعمل والكفاح الدؤوب, فهو الشرط الأول. إذاً فالثبات الاجتماعي باق؛ ببقاء الجذور والأصالة والثوابت الأساسية والهوية الوطنية.

وعندما نقول الهوية الوطنية فإننا لا نجعلها بإزاء الدين، بل إنّ الهوية الوطنية لأيّ شعب من الشعوب هي: عبارة عن مجموع الثقافات والعقائد والطموحات والآمال والأخلاقيات التي يمتاز بها.

إنّ شعبنا متديناً، يعني ذلك الشعب الموحد المؤمن المعتقد بالمقدسات الإلهية وأهل بيت الرسالة، فهذا جزء من ثقافته وهويته، وإنّ الهوية الوطنية التي نقول بها تشمل كل ذلك، فلا بدّ من الحفاظ

عليها جميعاً. وبالتأكيد فلا بدّ من العمل والتمحيص؛ من أجل القضاء على السلبيات وتغييرها.

وبخلاف ذلك ونقيضه هو أن تسودنا الهمجية والفوضى الأخلاقية والسياسية والنوازع الهدّامة والخواء وتجاهل الهوية الوطنية، فهذا خلاف المطلوب، أي إيجاد حركة، ولكنها حركة للقضاء على كل ما نملك من مزايا إيجابية ومفيدة وضرورية، وهذا خطأ.

في زمن الشباب — عندما دخلت نهضة العمارة الغربية إلى إيران — كان البعض يريدون تهديم المباني القديمة وتحويلها إلى مبانٍ على الطراز الحديث.

وهذا الطراز من المباني ذات النوافذ الزجاجية الكبيرة بدأ منذ ذلك الوقت.

فقد أخذوا يهدّمون المباني القديمة القوية؛ مما جعلني أتعجب! وهكذا كان الحال في مدينة مشهد، حيث بدأوا يهدّمون المباني القوية والجيدة؛ لأنها قديمة، ويستخدمون الحديد والخرسانة المسلّحة والأبواب الحديدية والنوافذ الكبيرة، وهذا عمل سيئٍ وخاطئٍ ولا يقرّه العقل، فالمهندسون المعماريون والمختصّون بهندسة البناء يقولون: بأن الطراز القديم كان الأنسب لبلادنا، وهذه النوافذ الزجاجية الكبيرة والمنافذ الشمسية تتناسب

أوروبا؛ لأنهم يغتتمون الشمس المشرقة، بينما نجد أنّ بلادنا تغمرها الشمس، ولاسيّما الكثير من مناطقها.

وهذا ما ننتهجه أحياناً في التحوّلات البنّائية الأساسية في مجتمعنا، فبدلاً من أن نحافظ على الأسس ونركز على ما نحتاجه، ونوفّر لأنفسنا ما نفتقر إليه، فإننا ننتاسي هويتنا الوطنية المستقلة! وهذه مسألة جرّت الكثير من الويلات للأسف على بلادنا والعديد من البلدان الإسلامية كما سنشير ربما فيما بعد.

ولكن الأشدّ خطورة من ذلك هو أن يكون زمام هذه التحوّلات السلبية على المستوى الدولي بين أولئك الذين يريدون استخدامها ذريعة لتحقيق أهدافهم، سواءً أكانت بسطاً للنفوذ، أو استغلالاً للثروات؛ وذلك دون أن يعيروا أدنى أهمية لهوية الشعوب، وهو للأسف ما حدث في العالم خلال القرن أو القرن والنصف الأخير، أي أنّ تحوّلات البلدان الآسيوية والأفريقية ودول أميركا اللاتينية كانت فريسة لعصابات القوى الكبرى العالمية، التي تأتمر بأمر الصهيونية العالمية وأصحاب رؤوس الأموال المتنّفين في العالم.

إنّ كل ما كان يهّم هؤلاء هو اكتساب النفوذ السياسي؛ الذي يمكنهم من بسط نفوذهم على البلدان والدول الأوروبية وسواها، فيتحكّمون في اتجاه السياسة، ويوفّرون الأموال الطائلة لإقامة مثل هذه الشركات والمؤسسات والمجمعات والمصارف الكبرى. لقد كان هذا هدفهم الرئيسي وكانوا على استعداد لاقتراح أي جرم؛ بغية تحقيقه، حتى ولو اقتضى ذلك ترويج الإباحية الجنسية، وثقافة الاستهلاك، وتجاهل الهوية الوطنية والمبادئ الثقافية والحضارية للشعوب.

لقد كانت هذه أهدافهم الكبرى، التي أخذوا يروّجون لها عن طريق ما كانوا يستحوذون عليه من إمكانيات ثقافية ووسائل إعلامية وصحف متعددة وقنوات دعائية مختلفة، وهو ما راح يتسرّب الآن إلى حيّز العلن، حيث طالعت مؤخراً تقريراً حول تأسيس ما يسمّى بـ (الناتو الثقافي) أي أنهم أوجدوا (ناتو ثقافي) بإزاء حلف الناتو الذي كان الأمريكيون قد أنشأوه في أوروبا؛ بهدف التصديّ للإتحاد السوفيتي السابق على شكل تجمّع عسكري قوي، ولكنهم كانوا يستخدمونه أيضاً لقمع أي صوت معارض لهم في آسيا ومنطقة الشرق الأوسط.

إنّ هذا خطر داهم، ولقد حدث هذا منذ سنوات عديدة وليس الآن.

فهناك مجموعة منظمة متناسقة من وسائل الإعلام المختلفة — بما فيها شبكات الانترنت والفضائيات والتلفزيونات والإذاعات — تعمل باتجاه محدد وإستراتيجية معيّنة؛ للسيطرة على كافة التحوّلات في العالم، وهو ما بات أمراً بسيطاً ومتيسراً.

ففي جورجيا التي حفلت بتحوّل سياسي كبير، وتمّ تغيير السلطة أعلن صهيوني يهودي من أصحاب رؤوس الأموال الأمريكيين: أنه أنفق عشرة ملايين دولار لإيجاد ذلك التحوّل السياسي في جورجيا، هكذا بمنتهى البساطة، وهو رجل مشهور، ولكني لا أريد ذكر اسمه.

إنهم ينفقون عشرة ملايين دولار، فيسقطون حكومة ويأتون بأخرى! وإن عليهم أن يؤثروا في الشعوب وقيموا مجتمعات بهذه الطريقة. وهكذا فعلوا في أوكرانيا وفي بلدان أخرى.

وأحياناً تكون تأثيراتهم بصورة أخرى ومصيرية. وربما قلتُ في حديث لي أثناء أحد التجمّعات

الطلابية: أنّ مهاتير محمد رئيس الوزراء الماليزي السابق — وهو رجل نشيط ودقيق وجاد وصاحب إرادة راسخة — جاء في زيارة لإيران، والتقيتُ به أيضاً، وكان ذلك أثناء ما عمّ بلدان آسيا الشرقية من أحداث وتحوّلات، كما في ماليزيا وإندونيسيا وتايلندا التي واجهت زلزالاً اقتصادياً.

وقد استطاع ذلك الثري الصهيوني، ومن بعده أثرياء آخرون إيصال عدد من البلدان إلى حد الإفلاس عن طريق استخدام خدع والأعيب مصرفية ومالية.

حينذاك أخبرني مهاتير محمد قائلاً: لن أقول لك سوى أننا أصبحنا شبه شحاذين! وطبعاً فإن أي بلد سيواجه نفس المصير إذا ما خضع للتبعية الاقتصادية، وأراد الاستفادة من المحفّزات الاقتصادية التي يطلقها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي.

إنّ البنك الدولي وصندوق النقد الدولي يعتبران جزءاً من ذلك التكتّل الضخم.

ومن الخطورة بمكان أن يصبح مصير التحوّلات العالمية بيد عصابات السلطة الدولية، وهو ما نراه اليوم، إنهم الصهيانة وأصحاب رؤوس الأموال، ومقرّهم غالباً أميركا وأوروبا.

وبعد هذه الملاحظات حول موضوع التحوّل لا داعي للهرب منه، ولا ينبغي أن نخشاه، ولا يجب أن نخلط بينه وبين الفوضى والغوغائية، فالتحوّل شيء جيد وضروري.

إنّ قضيتنا الأساسية اليوم هي: أنه لا يمكن لنا بلوغ أهدافنا، لا بالجمود على الماضي وقمع التقنية الحديثة، ولا بالتسيّب وضرب المبادئ الأساسية والضياع في الفوضى الاقتصادية والعقائدية والثقافية، فكلاهما خاطئ.

إنّ الحرية الفكرية هي تلك النهضة الفكرية الحرة التي طرحناها قبل عامين أو ثلاثة، واستقبلها الطلاب بترحاب، ولكن ما قلته لم يطبق عملياً لا في الحوزة ولا في الجامعة.

لقد دعوتُ إلى منصاتٍ للفكر الحر. ولحسن الحظ فقد وصلني تقرير: أنّ بعض المجموعات الطلابية الناشطة في جامعات سمنان تعقد مناظرات حرة فيما بينها، فلو كان هذا التقرير دقيقاً فهو شيء إيجابي وجيد.

إنّ مسألة حرية الفكر التي طرحناها ناظرة إلى هذا الأمر، فيجب فتح الأبواب أمام حرية الفكر والتقنية والتحوّل، ولكن مع إشراف وإدارة جيدة؛ حتى لا تنتهي الأمور إلى ضرب الأسس وهدم البنى وزعزعة قواعد الهوية الوطنية.

إنّ هذا العمل لا بدّ له من إدارة حازمة، فمن الذي يتعهّد بإدارته؟ إنّ الأنظار تتجه فوراً صوب الحكومة ووزارة العلوم وسواها.

كلا، ستكون الإدارة بيدّ النخبة، بيدكم أنتم، بيدّ الناشطين من الأساتذة والطلبة والمجموعات الطلابية الفاعلة، فخذوا حذرکم! ابحثوا عن الجديد، وانظروا هل هذا الجديد يهدف إلى الهدم أم إلى الترميم والتكميل، فهذان متناقضان.

إننا سنعهد إليكم بهذا الأمر، فأمثالي من المسؤولين لدينا مسؤوليات، وإن كانت لا تخرج عن هذا الإطار، ولكنّ هذا العمل من اختصاصكم.

لا تأخذوا بالحسبان أنني ومسؤولي الحكومة سنقوم بإدارة الحرية الفكرية وحركة التحوّل والإقدام في المجالات المختلفة بدلاً عنكم كطلبة أو باحثين أو أساتذة، كلا، فدوري هو التوجيه والإشراف.

لقد تحدّثت حول نهضة التطور التقني والفني والإنتاج العلمي، والآن وقد مضى نحو عشر سنوات نجد أنه قد تمّ إنجاز الكثير.

إنني تكلمت فقط، ولكنكم أنتم — من باحثين وشباب وأساتذة — الذين حققتم كل ذلك، وهذا هو التحوّل.

إنّ على النخب الفكرية والثقافية في المجتمع والحوزة والجامعة أن تأخذ بزمام هذا التحول، فلا ينبغي قمع التحوّلات ولا الخطأ في التمييز بينها. حسناً، فلماذا هذا التحول؟ من أجل التطور، فما هو التطور؟ هذا ما يجب توضيحه. أولاً: يجب أن نسأل أنفسنا قائلين: ما هو التطور؟ فإذا لم نسأل هذا السؤال فمعناه أننا لا نفكر بالتطور. ولهذا فلا بدّ أن نطرح هذا السؤال أولاً على أنفسنا، ثم نبحث عن الجواب حتى نجده.

إنّ حول التطور ومعناه كلاماً كثيراً يثار في أنحاء العالم. ثمة آراء مختلفة، ونسخ مزيفة، ونصائح متناقضة، ووجهات نظر عجيبة وغريبة وبعضها ينمّ عن الخيانة، وهذا ما نزل بساحتنا – نحن الإيرانيين – إبان تحديث البلاد. فعندما لاحت للإيرانيين معالم التقدّم الأوروبي بدأوا يتوقون لمعرفة ماذا يجري في العالم، وهو شيء كان غائباً عنهم فيما سبق! لقد كان السلاطين القاجاريون في شغل عن ذلك بالنساء والإماء والدعوات والموائد والأمور الشخصية وقضاياهم التي لا قيمة لها، ولم يكونوا على علم مطلقاً بما يحدث حولهم في العالم. فمثلاً ما هي النهضة؟ وكيف حدثت؟ ولماذا؟ وما هي إنجازاتها؟ كانت كلها أموراً غائبة عن أذهانهم حتى زمن حكم فتحعلي شاه 5 وما بعده! فعندما نشبت الحرب بين إيران وروسيا، ومُنيت السلطة القاجارية بالهزيمة الساحقة؛ بفضل ما كان يمتلكه الروس من أسلحة متطورة، اخترعوها واستخدموها في هذه الحرب، بدأ القاجاريون في إرسال البعض إلى أوروبا، وأخذ السفراء الأوروبيون في إيران يتحرّكون على نطاق أوسع، وبعد ذلك راحت البعثات والعناصر الخاصة تتدفق على إيران بهدف تمهيد السبل للنفوذ السياسي، حاملين معهم وسائلهم وأساليبهم الخاصة.

فمن الذي كان عرضة لموجة الحداثة في بادئ الأمر؟ إنهم الأمراء ورجال البلاط القاجاري والشخصيات السياسية المتنفّذة حينذاك. وأما عامة أبناء الشعب فلم يكونوا على علم بشيء من ذلك، وحتى العلماء وسواهم. فهؤلاء جميعاً، سوى حفنة نادرة، وقفوا حيارى مدهوشين أمام هذه الثقافة والتطور

⁵ فتح علي شاه (1771-1834م) : حكم إيران خلفاً لعمه آغا محمد مؤسس سلالة القاجار، قضى معظم حكمه في الحروب، توفي في التاسع عشر من شهر جمادى الثانية سنة 1250هـ في مدينة أصفهان وحمل إلى قم ودفن في الرابع من شهر رجب، جلس بعده على أريكة السلطنة حفيده محمد شاه قاجار.

الغربي، فقدوا صوابهم وعجزوا عن استخدام عقولهم للإستفادة من هذا التقدم القادم من الغرب ومحاولة تطوير أنفسهم. فماذا كانت النتيجة؟

تصوّرت النخبة المثقفة في إيران في عصر المشروطة: بأن البلاد إذا كانت تريد التقدم فلا بدّ لها من أن تحذوا حذو الغرب بصورة تامة! أي التقليد المحض. وهكذا سارت الأمور حتى النظام البهلوي.

لقد عملت السلطة البهلوية على صقل هذا الاتجاه حتى يؤتي أكله بسرعة، فلم تكن مقتنعة بذلك الشوط الذي تمّ قطعه في عصر القاجاريين. والواقع أنهم جاءوا بالحكومة البهلوية من أجل تحقيق هذا الهدف، وأحاطوها ببعض العناصر المثقفة العميلة والموثوق بها، والمتشعبة بالثقافة الغربية؛ لتقوم بدورها الثقافي، آخذةً نصب عينها هذا الهدف.

ومن ذلك تطورات من قبيل السفور، وتغيير الزيّ الوطني، وحذف الألقاب الإيرانية كالمرزا أو السيد والخان والآقا، ومنح الأجانب الامتيازات الضخمة في مجال النفط، واستدعاء المستشارين الأجانب الذين أخذوا يتزايدون يوماً بعد آخر.

وبعد عزل الإنجليز رضا خان 6 بدأت مرحلة جديدة منذ عام 1332هـ.ش 1954م كان الأمريكيون فيها قابضين على زمام الأمور، وهكذا كانت التحوّلات في بلادنا في المرحلة الطاغوتية تسير نحو القضاء على الأصالة؛ بفضل تلك العناصر الخطرة التي كانت تدير البلاد.

ويا ليتهم كانوا يحصلون على شيء في المقابل! كلا، إنهم لم يكونوا يحصلون على شيء إطلاقاً.

أي أنّ الإيرانيين، أثناء تلك السنوات المتوالية — حوالي ستين أو سبعين سنة — عندما كان الانجليز والغربيون يسيطون نفوذهم على البلاد، لم يكن بإمكانهم إنشاء مركز للأبحاث في البلاد يأخذ على عاتقه مسؤولية الاختراع والابتكار، ولم يكن بمقدورهم تربية الكوادر العلمية بهدف التوصل إلى اكتشافات جديدة، أي أنهم لم يستفيدوا من الغرب على ما ينبغي.

⁶ رضا خان والد ملك إيران السابق (محمد رضا) ولد رضا خان في 16 مارس 1878م. في «سوادكوه» بأقليم مازندران الواقع على بحر قزوين قام بانقلاب عسكري في عام 1299هـ-ش (1920م) ضد احمد شاه آخر ملوك القاجار، وتربع على عرش الحكم في إيران عام 1304هـ-ش (1925م) وذلك بموجب الخطة التي وضعتها الحكومة الإنجليزية. تميز حكمه بالديكتاتورية؛ وأول عمل قام به بعد توليه العرش هو منع تدريس القرآن والتعاليم الدينية وإقامة صلاة الجماعة في المدارس. كما منع أقامه المراسم الدينية في كل أنحاء إيران وإقامة مجالس العزاء. تم عزله سنة 1941 م ثم نفي إلى جنوب إفريقيا من قبل الحلفاء.

فماذا كان أولئك يريدون؟ كانوا يريدون مجتمعاً استهلاكياً، وخصوصاً في مجال الاقتصاد الذي سيحمل معه بطبيعة الحال الاستهلاك الثقافي والخضوع السياسي. هكذا كانوا يريدون، وهكذا تمّ الاستسلام لهم بسهولة.

إنّ كل تلك القلاقل والصراعات والتحدّيات التي وقعت في المرحلة القاجارية منذ زمن التنباك وحتى الحقبة البهلوية وما بعدها، والتي دارت بين جبهة من المؤمنين بقيادة العلماء من جهة، وبين الحكام الجائرين من جهة أخرى كانت جميعها جرّاء هذه المسألة.

ففي قضية الامتياز المسمّاة (رژي أو ريجي) 7 وقف الميرزا الشيرازي 8 معارضاً إعطاء امتيازات مجانية وبلا

مقابل للغربيين والأجانب في مجال أهم مورد اقتصادي للبلاد.

وهكذا كان الأمر في قضية امتياز (رويتر) 9 واتفاقية 99 المعروفة (باتفاقية وثوق الدولة) 10 التي كانت البلاد بموجبها ستقع تماماً في قبضة الانجليز، والتي قام آية الله المدرس، ذلك العالم البارز، بمعارضتها.

⁷ (رژي أو ريجي) في 20 آذار 1890م، منح ناصر الدين شاه إمتيازاً لاحتكار التبغ وبيعه في إيران لمدة خمسين عاماً لشركة إنجليزية تدعى ريجي (RegiTobacco) لصاحبها الميجر تالبوت. وكانت الإتفاقية محففة جداً بالنسبة للشعب الإيراني، حيث تضمنت بنوداً وقرارات ضارة بالمزارعين والتجار وعمامة الناس.

⁸ الميرزا الشيرازي (1256—1338 هـ) محمد تقي بن محب علي بن محمد علي الشيرازي، الحائري، زعيم الثورة العراقية. كان فقيهاً كبيراً، أستاذاً قديراً، من مشاهير مراجع الدين للإمامية. ولد في شيراز وتعلّم في بلده، ثم ارتحل مع أبيه إلى العراق سنة (1271 هـ)، فاستوطن كربلاء (الحائر) ودرس بها، وانتقل إلى مدينة سامراء، فاخصّص بالمرجع الكبير السيد المجدد محمد حسن الشيرازي، وصار من أكبر تلامذته. وتصدى للتدريس في حياة أستاذه بسامراء، واشتهر بعد وفاته، وبعد احتلال البريطاني للعراق مدينة سامراء، فأقام في الكاظمية برهة، ثم استقرّ في كربلاء، وألقت إليه المرجعية العامة مقاليدها بعد وفاة السيد محمد كاظم الطباطبائي سنة (1337 هـ)، فنهض بأعبائها في تلك الظروف العصيبة، وطالب السلطات البريطانية بإنجاز ما وعدت به من تحقيق استقلال العراق، فعمدت إلى المطل ثم إلى الأخذ بالشدّة، فأصدر فتواه الخالدة: «إنّ المطالبة بالحقوق واجبة على العراقيين، وعليهم رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسّل بالقوة الدفاعية إن امتنع الإنجليز من قبول مطالبهم...»، فكان لهذه الفتوى صدى واسع في أوساط الجماهير واستجاب لها رؤساء القبائل الأمر الذي أدى إلى اندلاع الثورة التي تعرف بالثورة العراقية الكبرى وبثورة العشرين (1338 هـ، 1920م)، وظلّ صاحب الترجمة يرعاها إلى أن وافاه أجله قبيل أيامها الأخيرة، وذلك في - شهر ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف.

⁹ معاهدة رويتر: في تاريخ (25 يوليو 1872م — 18 جمادى الثاني 1289ق) منح ميرزا حسين خان امتياز مد سكك الحديد في إيران من رشت إلى طهران ومن العاصمة إلى الخليج الفارسي لأحد أتباع بريطانيا باسم (البارون جوليوس رويتر)... وذلك بهدف إحياء الاقتصاد واعمار إيران، وبموجب هذه الاتفاقية تسلم رجل أجنبي حق استخراج جميع معادن البلاد (عدا الذهب والفضة والأحجار الكريمة)، والاستفادة من جميع الغابات والقنوت، وتأسيس بنك وبريد وتلغراف ومعامل، وكل الأمور الاقتصادية في الواقع لمدة سبعين سنة.

¹⁰ (معاهدة وثوق الدولة) الموقعة في 9 آب 1919 بين (بيرسي كوكس) وكان سفيراً لبريطانيا في إيران ، وبين رئيس وزراء إيران (وثوق الدولة) المعروف بميوله للإنجليز.. وسميت الاتفاقية (اتفاقية المعاهدة البريطانية من أجل تقدم إيران ورفاهها)

ولم يكن الأمر مختلفاً في قضية تأميم النفط والتي تدخل فيها المرحوم الكاشاني¹¹ (رضوان الله عليه).

إنّ كلّ التحدّيات التي كان يقودها العلماء، ومن خلفهم الشعب والكثير من المثقفين ضد الحكام في العصور المختلفة كانت تسير جميعاً في هذا الاتجاه، أي المصالح الوطنية ورفض التحوّل الناشئ عن إرادة وقرارات القوى الأجنبية.

إذاً.. فنسخ التطور والنسخ الغربية والأجنبية لم تكن تتسم جميعاً بالأمانة. فماذا يلزمنا للحصول على نسخة صحيحة للتطور؟ بحث نظري. وهو واحد من المسؤوليات التي تقع على كاهلكم.

فما المقصود بتطور بلد من البلدان؟ إنني لا أقصد الإنشغال بالنقاش العقلي المفتوح، فنحن لا نريد أبحاثاً نظرية لا تأخذ بنظر الاعتبار الوقائع والحقائق الخارجية؛ لأن هذا من الخطأ.

فمثلاً، تحدّثنا يوماً حول الغزو الثقافي وقلنا: إنه بصدد الحدوث، وكان هذا منذ نحو اثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً.

فلو أريد منّي الكشف عن موارد الغزو الثقافي كأني أراه رأي العين لاستطعت ذلك. ولقد أشرت إلى ذلك في بعض أحاديثي، ولكن البعض أخذوا في إنكاره! وقالوا: لا وجود لشيء من ذلك! فتذكّرت أيام بني صدر، عندما جاء بعض المخلصين الوطنيين إبان الحرب العراقية المفروضة، وقالوا: لقد هاجم العراقيون أرضنا وعبروا حدودنا، فكنا نسأل بني صدر¹² رئيس الجمهورية قائلين: ماذا عندك من أخبار؟ إننا نسمع أنّ العراقيين شنّوا هجوماً على بلادنا، فكان

وقد نصت على أن تقدم إنكلترا قرضاً لـ 1330 مليون جنيه إسترليني مقابل توليها مهمة إدارة وتنظيم الجيش الإيراني. وقد عارض الملك أحمد آخر ملوك السلسلة القاجارية هذه المعاهدة وامتنع عن توقيعها. راجع كتاب موسوعة وثائق العلاقات الإيرانية الإنكليزية وهي أيضاً بالفارسية.

¹¹ السيد أبو القاسم بن السيد مصطفى الحسيني الكاشاني: ولد سنة 1330 هـ وتوفي سنة 1381 هـ، نال مرتبة الاجتهاد في الخامسة والعشرين من عمره، شارك في ثورة العشرين وكان عضواً في المجلس العلمي الذي شكّله الإمام الشيرازي لقيادة الثورة، كما أهتم وبمساعدة العلماء الآخرين من تأسيس حزب سياسي منظم ليسهل من عملية التعبئة الجماهيرية، ضد الإنجليز، فله باع طويل في نصرته الثورة، وبعد انتكاسة الثورة طارده الإنجليز فهرب إلى إيران، كان أيضاً مشاوراً للأخوند الخراساني في نهضة المشروطة، وكانت له مواقف مشرفة في إيران من قضية تأميم النفط. يعدّ من تلاميذ الشيخ محمد تقي الشيرازي والشيخ محمد كاظم الخراساني والميرزا حسين الخليلي.

¹² بني صدر: أبو الحسن، أول رئيس للجمهورية الإسلامية. صوت له الشعب في 1980/1/25 م. وأقاله الإمام الراحل (قدس سره) عن القيادة العامة للقوات المسلحة في 1981/6/10 م. أدلى مجلس الشورى الإسلامي رأيه بتنحيته بسبب سوء تصرفاته وعدم كفاءته في 1891/6/21 م. هرب إلى باريس متنكراً بزي النساء في 1981/7/29 م.

يجيب: إنهم يكذبون؛ لكي يحصلوا لأنفسهم على مواقع وإمكانيات! فكان يتهمهم بالكذب.

ثم ذهب إلى دهلران — ولم يكونوا قد احتلّوها بعد — وقال في لقاء له: إنني في دهلران الآن، يقولون: بأن العراقيين جاؤوا، فأين هم العراقيون؟! وبعد خروجه من دهلران بساعتين كان العراقيون قد احتلّوها. إنه من المستحيل غضّ الطرف عن الحقائق.

كان الملك المعاصر لحافظ، الشاه الشيخ أبو إسحاق — الذي كان ملكاً ولم يكن شيخاً، بل كان اسمه الشيخ أبو إسحاق — كان شاباً مترفاً وسيماً، ويُفهم من شعر حافظ أنه كان يحبّه كثيراً، فعندما جاء الأمير مبارز الدين وخيم بالصحراء بالقرب من شيراز تمهيداً لمهاجمتها كان حاكم شيراز البائس غارقاً في اللهو والملذات دون علم بذلك، ولم يتجرأ وزيره على إخباره بالأمر؛ لأنه لو أخبره لكذّبه.

وذات يوم توسّل الوزير بحيلة وقال للملك: ألا يرغب جلالة الملك في الصعود إلى سطح القصر في هذا الربيع الجميل للإستمتاع برؤية مشاهد الصحراء الغنّاء؟ ولما كان الملك ميّالاً لذلك بطبيعته فإنه قال: ولم لا؟ هيا بنا.

فلما صعد إلى أعلى القصر وجد الصحراء مملوءة بالمخيّمات فقال للوزير: ما هذا؟ فأجاب الوزير: إنها خيام مبارز الدين الكرمانى الذي جاء للاستيلاء على سدّة الحكم. وبهذه الحيلة استطاع الوزير إنماء الخبر إليه. وهكذا هم البعض، إنهم يخلقون عيونهم ويقولون: لا أثر للغزو الثقافي.

فلما اضطروا للقبول استغرقوا في الجدل العقلي! (ما معنى الغزو؟) و(ما معنى الثقافة؟) و(على ما تشتمل الثقافة وعلى ما لا تشتمل؟). فما شأننا بكل ذلك؟! يُحكى أنهم قديماً بنوا داراً للسينما في إحدى المدن، فقصدهم كبير علماء المدينة بهدف استمالته لمعارضة وجود هذه السينما، وقالوا له: أيها الشيخ! لقد أقاموا داراً للسينما في هذه المدينة، فماذا أنت فاعل؟ ففكر الشيخ قليلاً ثم قال: سنرى ما إذا كانت سينما أو سينما أو سينما! فأيتها صحيح؟! فقرروا مناقشة الموضوع

لمعرفة النطق الصحيح لكلمة سينما! إنني لا أحبذ مثل هذا النوع من الأبحاث التي تستحوذ على

الأذهان، ومع ذلك فلا بد من وجود بحث نظري لنعرف معنى التطور.

إنّ (تحديد هيكلية التطور) أمر ضروري، فما هو النموذج والشكل؟ لابدّ من توضيح ذلك، فلو اتّضح الأمر لترتّب الأثر على عمليات البرمجة والتخطيط والأولويات وخط السير والبرامج والمدة والميزانية، ولكانت هناك حركة بناء ثقافية، ولظهر ذلك في فكر النخبة، وانعكس على أفكار العامة، وكان له أثر حتى على عملية التصدير والاستيراد، ماذا نستورد؟ وماذا نصدّر؟.

والآن نريد أن نوضّح معنى التطور، فما هو؟ ثمّة تعاريف مشهورة للتطور والبلاد المتقدمة وشائعة في العالم، ونحن نقبل بأغلبها، فمثلاً التقدّم الصناعي وما بعد الصناعي؛ دليل على التطور.

وكذلك الاكتفاء الذاتي في الأمور الحيوية والأساسية. ولا يعني هذا عدم الحاجة تماماً للآخرين، ولكن تتظّم الأمور والعلاقات بحيث يتمّ ذلك بلا عراقيل.

إنّ زيادة الإنتاج وارتفاع مستوى الصادرات ونسبة الأرباح والنهوض بالتعليم، وارتفاع مستوى ثقافة الجماهير والخدمات وزيادة متوسط الأعمار — أو كما أصبح يعرف أخيراً بالأمل في الحياة — كلها من دلائل وأمارات التقدم.

وأيضاً فإن انخفاض نسبة الوفيات وموت الأطفال والقضاء على تفشي الأمراض، واتّساع رقعة العلاقات وما إلى ذلك تعتبر كلها من دلائل التقدم طبقاً للمعايير السائدة في العالم، ونحن نقبل بذلك ولا نرفضه.

ولكن يجب أن نعرف أنهم عندما ينقلون إلينا هذه المشخصّات والمعايير — نحن الذين لم نبتكرها — فإن بين طبيّاتها تقبّع أشياء ليست من مشخصّات التقدم والتنمية، وهم يزجّون بهذه الأشياء كملح من ملامح تصدير ثقافة مغايرة للهويات والشخصية الوطنية؛ بهدف الإيقاع بالبلدان المستوردة في شباك التبعية.

ومع أنّ الذين يعدّون ويقدمون هذه المشخصّات هم غالباً من العلماء، إلا أنّ معظمهم لا يتمتع بالاستقلالية، أي أنّ هذه الشبكة وهذا النانو الثقافي يحتوي من بين عناصره على الكثير من هؤلاء العلماء والمفكرين والفنانين والأدباء وما إلى ذلك. ومع هذا فلا بدّ أن يكون التحوّل مبنياً على أساس (الأخذ بالاعتبار العناصر الأساسية للهوية الوطنية) ومن أهمّها القيم الأساسية والأصولية.

إنني أقول ذلك: على أساس أن يكون هناك تقدّم صناعي وما بعد الصناعي، وتطور علمي وخدماتي وطبي وصحي، ولكن دون التخلّي عن الهوية الوطنية.

فإذا ما كان هناك بلد يمتلك كل هذه المقومات، ولكنه فاقد لهويته الوطنية، وتتمتع ثقافته بالتبعية للآخرين، ولم يحقق الاستفادة من ماضيه وتاريخه، أو تجاهل تاريخه واحتقر ماضيه؛ تأثراً بالآخرين، فإن هذا البلد لن يحرز تقدماً أبداً؛ لأن الهوية الوطنية هي عماد كل تطور.

إنّ الذي نعتبره تحوّلاً تقدّميّاً — وهو من أهدافنا — يتمثّل بمكافحة الفقر والعنصرية والأمراض والجهل وعدم الاستقرار الأمني والتسيّب القانوني، والارتفاع بمستوى النظام الإداري على أساس أكثر علمية، والعناية بسلوك الجماهير والانضباط الاجتماعي والارتفاع بمستوى الأمن والثروة الوطنية والمجال العلمي والافتقار الوطني والأخلاق والكرامة الوطنية؛ لأن ذلك كله يلعب دوراً رئيسياً في الاتجاه بمسيرة التقدم على النحو الصحيح، ونحن نعتبر كل هذه المقومات من القواعد والأركان الأساسية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن حب المعنويات والتقرب إلى الله يعتبر من أهم العوامل، التي تمثّل ضماناً للتقدّم الحقيقي لأي بلد من البلدان، ومن دونها فإن جميع ما يُعد تقدّماً في العرف العالمي يُمكن أن يُستهلك في الاتجاه الخاطئ، بمعنى أن يكون هناك بلد يتمتع بالانضباط الاجتماعي والرقى الأدبي والأخلاقي، وارتفاع مستوى الثروة المادية والعلمية، ولكنه يستخدم كل هذه المكتسبات من أجل القضاء على بلد وشعب آخر، وهذا خطأ وليس صحيحاً في منطقتنا.

إنّ ذلك البلد يستخدم تقدّمه العلمي في صناعة الأسلحة الفتّانة كالقنبلة الذرية، التي لو سقطت في مكان لأحرقت البشر والمدن بلا أي فرق بين الجاني والبريء أو المدني والعسكري أو الأطفال والصبيان والمظلومين الأبرياء.

إننا ضد مثل هذا العلم الذي يُستخدم في هذا السبيل، ولسنا مع أي دولة تسلك هذا الطريق،

ونرفض كل تقدّم يجرّ إلى هذه العاقبة الوخيمة.

إنّ عبادة الله الواحد، والاعتصام بحبل المعنويات والمشاعر الإنسانية المرهفة لابدّ وأن تكون قوية وشاخصة في أي نوع من أنواع التقدّم والتطور، وعلينا أن نمضي قُدماً في هذا الاتجاه.

إنّ التطور الاجتماعي أو الاقتصادي الذي ينزع الحب والعاطفة من قلوب الناس ليس بالأمر المحمود، بل إنه مذموم.

عندما تجدون في بعض البلدان الغربية أن الابن والأب يعيشان في مدينة واحدة، ولكن الابن لا يتفقد أحوال والده طوال سنوات، أو انتشار ظاهرة التفكك العائلي، أو حرمان الأطفال من عاطفة الأبوة والأمومة، أو أنّ الزوج والزوجة يعيشان معاً بموجب عقد قانوني ليس إلا، أو أنّ المرأة تعمل في مكان والرجل في مكان آخر فإذا ما أنهيا العمل في الثامنة أو العاشرة مساءً ذهب أحدهما لمقابلة صديقه والآخر للقاء زميله، فإن هذه السلوكيات فيما لو كانت حقيقية تعتبر من أمارات التأخر والتخلف.

إنّ التقدّم الذي يتحقق بهذه الأخلاقيات لا يحظى بدعمنا.

إننا نتطلع نحو نوع من التقدم يقوّي من عرى الألفة والمحبة بين الآباء والأمهات والعوائل والأبناء والأصدقاء والجيران حتى الجار الأربعين، فهذا هو الصحيح.

إنّ البيئة يجب أن تكون مفعمة بالترحم والتعاطف، وشعور كل فرد من أفراد المجتمع بالمسؤولية تجاه الآخر (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)13.

إنّ التقدّم المطلوب هو الذي يؤدي إلى تأصل الأبعاد الأخلاقية في النظم والعلاقات الاجتماعية، وهذا هو التقدّم في نظر الإسلام والجمهورية الإسلامية .

إنّ التقدّم القائم على أساس الأنانية والإنغماس في الملذّات ليس تقدّماً.

إنّ العالم الصناعي في الغرب يتمحور اليوم حول إياحة الشهوات؛ بشرط عدم التعدي على الآخرين. فكل ما تهواه مباح، فاستمتع بالذائذ؛ ولهذا فقد وصلت هذه التعبيرات المخجلة

الشائعة اليوم حتى إلى أبواب الكنائس!

إنّ ذلك اللهو والممارسات القبيحة كالروابط والعلاقات الجنسية المستهجنة واللامشروعة التي تسود بينهم الآن كانت خفيّة يوماً ما، ولكنها باتت علنية بالترجّح.

لقد صرّح قسيس في أحد الكنائس الأمريكية منذ عامين أو ثلاثة: أنه على استعداد لإتمام عقد القران بين مثلين من نوع واحد ليعيشا معاً حياة زوجية! فهذا هو الانغماس في اللذائذ والدعوة إلى الشهوانية. إنه يقول بأن ذلك أعجبه، فلا بد من ممارسته. إنّ هذا شيء محرّم ومذموم ولا نعتبره تقدّماً.

إننا نرفض الإقتدار القائم على ظلم الشعوب الأخرى والمؤدّي إلى تأخرها، ذلك التقدّم والتطور الذي لا يخدم إلا طبقة خاصة – الطبقة الرأسمالية – وهو ما نراه الآن

¹³ بحار الأنوار: ج72، ص38. باب 53، الحديث 36.

في البلدان الغربية. فكيف يتم توزيع ثروات تلك البلدان، وهي ثروات طائلة، أي الدخل العام المتدفق، أو ما يعبر عنه بالدخل الوطني غير النهائي؟ وما الذي يحصل عليه كل فرد في المجتمع، وما الذي يقدمه في مقابل ذلك؟ إنها أشياء تبقى عادةً طي الكتمان. إن الزوج والزوجة هناك يعملان ليل نهار؛ حتى يمكنهما كسب لقمة العيش، بينما يمتلك أصحاب رؤوس الأموال الكبار – من أمثال روكفلر وفورد 14، وأولئك الذين برزوا حديثاً على الساحة – أطناناً من الثروات الباهظة بلا عد ولا حصر، وهذا ما نرفضه.

إن التقدم الذي لا يخدم سوى طبقة الأثرياء ليس تقدماً بل هو تأخر. وإن التقدم الذي لا يتحقق إلا بفقدان الهوية الوطنية المستقلة وضياع الذات لا يدعو أن يكون تأخراً وتخلفاً.

إن التقليد والترويج وتطور التقليد ليس تقدماً.

إن التبعية الاقتصادية والتقليد العلمي وصيحات الترجمة في الجامعات، والدعوة إلى ترجمة شتى ما تنتجها العقلية الغربية والأوروبية، واعتبار كل ما يخالف ذلك خارجاً عن إطار العلم ليس تقدماً، وإنما لا نعتبره تطوراً؛ ولا يعني هذا أننا ضد الترجمة. كلا، وهو ما رددته مراراً وتكراراً في المحافل الأكاديمية، بل إن الترجمة شيء جيد للغاية،

وكذلك التعلّم من الآخرين، فلنترجم من أجل بناء أنفسنا، فلنفهم ما يقوله الآخرون؛ حتى

تنتفق أذهاننا عن فكر جديد دون أن نبقي دائماً عند ما قاله الآخرون في مرحلة خباً بريقتها.

إن بعض أساتذة الجامعات يقفون بكبرياء أمام الطلبة، مرددين ما قاله أحد الكتاب أو الفلاسفة أو أنصاف الفلاسفة منذ ما يزيد على نصف قرن حول بعض القضايا الاجتماعية على أنه كلام جديد! إن هذا ليس تقدماً بل تأخر.

إن تزييف اللغة الوطنية، واستلاب الهوية الإسلامية الوطنية، والتقليد بدل الاختراع ليس تقدماً. إننا لا نعتبر التبعية والتغرب تقدماً.

¹⁴ يعدّ جون دافيسون روكفلر من أشهر الأثرياء في الولايات المتحدة إن لم يكن أشهرهم، والذي انطلق من الصفر، من بدايات متواضعة أصبح من أشهر الشخصيات في العالم، وهنري فورد هو مؤسس شركة فورد لصناعة السيارات: (Ford Motor Company).

إنّ النّقد هو أن نتعلّم كل ما نحتاجه من أسباب العلوم، ثم نتجاوز ذلك إلى مرحلة العمل والاستفادة، وأن نقوم بإنجاز الدراسات والأبحاث المختلفة؛ بهدف التنمية العلمية، وأن نتّجه نحو الأبحاث التأسيسية والعملية؛ بغية تحقيق الإبداع التقني، أو أن نقوم باختراعات واكتشافات تقنية جديدة، أو أن نكمل المشوار ونصح المسيرة، وأن نستفيد من التجارب المتطورة في العالم في مجالات التعليم الإداري، وأن نتداول كل ذلك بعمق فيما بيننا؛ طبقاً لاحتياجاتنا وتقاليدنا وثقافتنا ثم نطبّقه على مجتمعنا، وأن نكتسب الأبحاث والتحقيقات حول ما نعانیه من مشاكل اجتماعية بحثاً عن الوصول إلى حلول لها، كما يجب علينا مكافحة الإسراف.

إنّ الإسراف آفة اجتماعية. فما هو سبيل مكافحة ظاهرة الاستهلاك في المجتمع، وما هو أسلوب القضاء على ظاهرة تفضيل السلع الأجنبية على المحلية؟ إنّ هذا يحتاج إلى دراسة.

إنّ من الضروري أن تكون هناك مشاريع بحث وتحقيق في الجامعات، وأن يعمل الأستاذ والطالب معاً، وأن تصل نتيجة هذه الأبحاث إلى المسؤولين وإلى وسائل الإعلام؛ حتى يُكتب لها الذبوع والانتشار، فيعلو صرح الثقافة. إنّ هذا هو النّقد.

ما هو سبيل مكافحة انتشار ظاهرة الانحلال والتسيّب الأخلاقي الغربي؟ وما هو طريق مكافحة الفوضى الاجتماعية؟ إنها قضية الضوء الأحمر وهذا أحد أصغر نماذجها. ما الذي يجب علينا عمله حتى نجعل الدراجات البخارية وسيارات الأجرة والسيارات الخاصة وسيارات المدراء والمسؤولين تحترم الإشارة الحمراء؟ وماذا نفعل لكي نجعل المشاة يتوقّفون عند مشاهدة الضوء الأحمر؟

إنّ هذه أمور جيدة جداً، وهي تقلل من حجم الأضرار، وتيسّر وسائل وسبل العيش، وتجعل المواطنين يعيشون في طمأنينة وهدوء.

والآن إذا كنا نعانى من مشكلة ما، فكيف نحلّها؟ وكيف نفك هذه العقدة؟ هذا هو واجبكم، ما هي سبل مكافحة الطلاق والمخدرات وعدم توقير الكبار — وإن كان نادراً عندنا، ولكن ظهرت بعض بوادره — وعدم احترام الوالدين والكذب ونفاد الصبر؟ لماذا لا يتحمّل أحدنا الآخر ولماذا نمعن في النّقد؟ ولماذا نصطدم ببعضنا الآخر في مجتمع واحد ذي هدف واحد بمجرد لمسة بسيطة أو احتكاك ضئيل؟!!

إنني أتحدّث معكم حول هذه الأمور — بحكم تجربتي الشخصية من بداية الثورة وحتى الآن — وأقول: إنّ معظم تجمّعاتنا السياسية من هذا القبيل، ولكنها للأسف الشديد سرعان ما تتحوّل إلى خلافات عميقة.

عندما كنتُ رئيساً للجمهورية كان لدينا تياران سياسيان: اليسار واليمين، فكان البعض يميلون إلى اليسار والبعض الآخر إلى اليمين. آنذاك — حوالي عام 62 أو 63 هـ.ش لا أتذكّر على وجه الدقّة — قمت ببحث تحليلي معمّق برهنت فيه: على أنّ هذه الخلافات أشبه ما تكون بالخلافات القبلية العربية القديمة، حيث تختلف قبيلة مع أخرى لأسباب لاهي اقتصادية ولا هي عقائدية.

لنفرض أنّ حصاناً لهذه القبيلة رعى في مرعى أحد أفراد القبيلة الأخرى، فاستنكر ذلك، فأجابه الآخر بكلام مفحم، فيشتعل أوّار معركة تراق فيها دماء أو قد لا تراق، ولكنّ هاتين القبيلتين يظلّ العداء بينهما قائماً إلى أبد الآبدين! لقد أثبت أنّ الخلافات بين اليسار واليمين في تلك الأيام كانت من هذا القبيل.

لقد تحوّلت الخلافات العاطفية والأخلاقية إلى تكتلات سياسية. ولكنّ الأمور اليوم لم تعد على ذلك النسق. فالיום يعارض البعض بشدّة أصل نظام الجمهورية الإسلامية بلهجات وشعارات مختلفة وتحت ظلال رايات متفرّقة.

وليس السبب في هذه المعارضة أنّ لديهم بديلاً أفضل، بل إنهم يعارضون الجمهورية الإسلامية للشعارات التي رفعتها لمكافحتهم.

لقد قامت الجمهورية الإسلامية على أساس شجب السيطرة الغربية والأمريكية، ولكنهم مع تلك السيطرة. وقامت الجمهورية الإسلامية من أجل نشر الدين والمفاهيم الإسلامية، في حين أنهم أساساً ضد نشر هذه المفاهيم.

لقد جعلت الجمهورية الإسلامية عدم الفصل بين الدين والسياسة شعاراً لها، بينما هم أعداء لوحدة الدين والسياسة.

إنّ البعض يسبّرون على هذا المنوال، فهل هم قليل أم كثير، ومن هم، هذه أمور لا شأن لنا بها الآن، ولكننا ما زلنا نشاهد خلافاً قائماً بين نفس هذه التجمّعات ذات الفكر الواحد والاتجاه الواحد، وهي خلافات على غرار تلك الخلافات القبلية القديمة.

فما هي سبل مواجهة هذا النوع من عدم تحمّل الواحد للآخر؟ هذا يحتاج إلى بحث نظري أو تيوري كما نقولون، ثم ننزلونه إلى الميدان. هذا هو النقد، وهذا جزء من مقوماته، وعلى ذلك فقسّ.

إننا نقول: أولاً، لا ينبغي معارضة التطور.

ثانياً: لا بدّ من القبول به.

ثالثاً: لا بدّ من القبول بالتطور فضلاً عن عدم مناصبته العداً.

رابعاً: التطور الذي يسفر عن التأخر هو تطور سيء.

خامساً: لا ينبغي الخلط بين التطور والهمجية والعشوائية والفوضوية.

وأخيراً لا يجب أن تكون معايير التطور المعمول بها في عالم اليوم – والتي

أوضحنا معظمها –

قاعدة لتطورنا، بل لا بدّ من الأخذ بنظر الاعتبار المعايير الخاصة بالجمهورية الإسلامية، وما يتمتع به الإسلام من فكر جديد في المجالات الأخلاقية والمعنوية والعبادية والأخوية، والصلوات والعلاقات البشرية، وأن يكون هذا ضمن معايير التقدّم، وأن تقوم مجموعة من النخب الجامعية والحزوية بتحمّل مسؤولية هذا الموضوع. إنّ عليكم أيها الشباب وأصحاب القابليات أن تبادروا بالنزول إلى الميدان دون انتظاري وانتظار الآخرين.

إننا نكبركم بنحو خمسين عاماً على الأقل، وأنتم ما زلتم في ريعان الشباب، تتدفّق في عروقكم دماء الحيوية والنشاط؛ فهذا من واجبكم، كما أنّ المستقبل لكم.

ولهذا فلا داعي للإنّظار، وعلّكم بالإقدام والمبادرة أنتم وأساتذتكم.

كما يجب على المسؤولين إيلاء أهمية للأمر. ولكن عليكم أن تعلموا أنّ الأمور بحاجة إلى إدارة حازمة، فيما لو تحمّلتكم المسؤولية، فخذوا بالإعتبار مراقبة هذه المشخّصات والعناية بها جيداً.

إنّ القضية تشبه ميدان الألغام الذي تحيط به الألغام من الجانبين، فتحرّكوا في الاتجاه الصحيح.

ألّهم تفضّل على هذه القلوب الشابة واليانعة بعنايتك ورحمتك، واجعل ما سمعناه وما قلناه خالصاً في سبيل رضاك، ووفّقنا للعمل بما نؤمن ونقول، وأقرن عملنا بالعلم وعلمنا بالعمل.

ألّهم أفض على قلوب هؤلاء الشباب المؤمنين الأعزاء المزيد من نور الحب والمعرفة واللفظ والفضل الإلهي، ووفّقهم لزيارة ولي العصر – أرواحنا فداه –

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته